هواية المجتمع - هواية الطفل

هالة الأتاسي(*)

لغة الطفل والإعلام:

ـ لما كان للغة عمومًا، دور أساسي في تنمية معرفة الإنسان ، كما أنها الحال المعبّر عن حضارة هذا الإنسان، بكل تجلياتها من فكر وأدب وقيم وفن . فلا شك أن اللغة التي يتلقاها الطفل العربي، في البيت والمدرسة ولمجتمع، ومن خلال وسائل الإعلام، تعكس تماما صورة هذا البيت، وتلك المدرسة والمجتمع، كما تعكس أيضًا، قيمة هذا الطفل، ومكانته، والذهنية السائدة في التعامل معه، والطرائق المتبعة في تنشئته، وفي التواصل معه .

ويبدو الإعلام الآن ـ وبعد أن تم الاعتراف به شريكًا أساسيًّا لا غنىً عنه في عمليتي التربية والتنمية ـ بابًا لابد من ولوجه، لمعرفة مكانة اللغة اليوم، في مجتمعاتنا عامة، ولدى شريحة الأطفال بشكل خاص .

وحين نقول(الإعلام)، فإننا لا نعني بذلك الإعلام الموجّه للطفل حصرًا . إذ لا يمكن بحال من الأحوال، عزل الطفل وإبعاده عن التأثر بلغة الإعلام ككل[1] لصعوبة واستحالة ذلك من جهة، ولأن الدراسات التي قاربت موضوع تأثير الإعلام ـ خاصة المرئي منه ـ على الأطفال، انتهت إلى أنهم يميلون إلى مشاهدة الأعمال الموجّهة إلى الكبار، أكثر من تلك الموجّهة إليه، ولذلك أسبابه الأخرى .

كذلك لا يمكن أن نعزل لغة الإعلام، عن اللغة التي يتعلمها الطفل في المدرسة ويلقنها في البيت وفي المجتمع، فهذه المصادر جميعًا، ترفد وتغذي وتثري محصول الطفل اللغوي والمعرفي، وتكسبه في النهاية، لغته .

وباعتبار المدرسة، هي المؤسسة المسؤولة أولاً عن تعليم الطفل لغته، فلابد من محاولة الكشف، لمعرفة مستوى ومكانة هذه اللغة، وطرائق تدريسها، وأهلية القائمين عليها . خلوصًا إلى بعض نقاط الارتكاز، التي يمكن أن تساهم في تشكيل صورة عن واقع لغة الطفل العربي، في عصرنا هذا .

(*) إعلامية ـ التليفزيون السوري .

يشير تقرير(وضع الأطفال في العالم[٢] الذي أصدرته منظمة اليونيسيف عام ٢٠٠٦، إلى أن هنالك حوالي ٨ ـ ١٠ ملايين طفل عربي خارج منظومة التعليم الأساسي. أما في سورية، فيشير التقرير الوطني للتنمية البشرية[٣]، الذي أصدرته هيئة تخطيط الدولة، بالتعاون مع برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (تحت عنوان: التعليم والتنمية البشرية نحو كفاءة أفضل)، إلى أن حوالي ربع أطفال سورية، محرومون من التعليم الأساسي. إضافة إلى أنّ ظاهرة التسرّب من المدرسة بشكل مبكّر قد أدّت إلى ارتداد قسم كبير من هؤلاء الأطفال، إلى مجرد الإلمام بالقراءة والكتابة، وأحيانًا إلى النكوص إلى الأمية.

معنى ذلك، أن عملية التعليم تجابه مشكلتين رئيستين متداخلتين، هما: الأمية والتسرّب. وهاتان المشكلتان تقفان عائقًا أمام عملية التنمية البشرية من جهة، وتحرمان ملايين الأطفال من جهة أخرى، من فرصة الاتصال بالمعرفة، وبابها اللغة الأم. حيث يبقى الإعلام وكأنه النافذة الوحيدة لتلقي المعرفة، ولتشكيل وجهات النظر، وأنماط السلوك.

ولكن، ماذا عن مستوى ومكانة تعليم اللغة العربية للأطفال الملتحقين بالمدارس، ماذا عن أساليب تدريسها، والمناهج التي تتبعها، والسياسات المتبعة في نظم التعليم؟

بالنسبة للوضع العربي عامة، يمكن أن نستدل ونجد الإجابة، من خلال بعض الدراسات أو التقارير المحلية أو العربية[٤]، حيث تشير إلى:

١ـ تدني التحصيل المعرفي.

٢ـ ضعف القدرات التحليلية والابتكارية.

٣ـ اطِّراد التدهور في العملية التعليمية.

أما في سورية(مثالنا)، فلقد تمت الإشارة إلى تردِّي نوعية التعليم وأساليبه، وإلى ضعف المناهج، لأسباب عديدة[٥]، من أهمها:

ضعف الجهاز التعليمي، من حيث مهنية المعلمين ومستوى تأهيلهم:

فلقد أدت سياسة تعميم التعليم الأساسي، وحق الجميع في الحصول عليه، إلى استعانة وزارة التربية، لسد النقص الكبير في الوظائف التعليمية، بالمعلمين الوكلاء، والمدرسين المكلفين، الذين لا يتوافر فيهم سوى مستوى الشهادة الثانوية، وحتى إلى مستوى الإعدادية في بعض السنوات. كما تم، وبدءاً من عام ١٩٧٥، تثبيت هؤلاء المعلمين الوكلاء، وتحويلهم من معلمين عرضيين إلى معلمين محترفين، وحصرت اختبارات التثبيت هذه في مادتي: اللغة العربية والرياضيات.

ونحن هنا أمام حقيقة هامة، تكشف عن واقع تعليم اللغة العربية في المدرسة، وهو وجود نوعية من المدرسين غير المؤهلين، وغير القادرين وفق جميع المعايير على تعليم اللغة بشكل صحيح،

وكما ينبغي أن يكون الأمر . ذلك أن دور المعلم (المفترض)، من إرشاد وتوجيه إلى مصادر المعرفة، ومن تصحيح للأخطاء، وتقويم للنتائج، غير قائم في وضع كهذا . أضف إلى ذلك، الطريقة التلقينية المتّبعة في توصيل المعلومة، واستخدام(العامية) لغةً لشرح الدروس، وانعدام فرص الحوار أو التعبير الحر، واللجوء إلى حفظ (الملّخصات) حتى في مواضيع الإنشاء والتعبير .

ويزيد الأمر سوءًا، تضاؤل، وأحيانًا غياب دور المكتبات المدرسية(*)، التي يفترض أن تكون رديفة لقاعة الدرس والمناهج الدراسية . فضعف قدرات ومؤهلات المدرسين القائمين على تدريس اللغة العربية، يؤدي بالضرورة إلى ضعف وعيهم بأهمية المكتبة المدرسية[٦]، كمصدر للمعرفة .

لا جدال أن هذه الصورة، عن واقع حال اللغة العربية في المدارس، تلقي بظلالها على لغة الفرد، وعلى تكوينه الفكري والثقافي، فإذا كانت الأداة الرئيسية للتدريس والتعليم، والتعبير عن النفس والأفكار، تعاني هذا الوضع . فما هو وضع ومكانة (الأداة الثانية) إن صحّ التعبير، التي تساهم وتؤثر في تشكيل لغة الطفل، وفي تغذية محصوله اللغوي والمعرفي، ألا وهي (الإعلام)؟

يقودنا هذا التساؤل، إلى مجموعة من التساؤلات، حول واقع الإعلام الموّجه للطفل .

أية سياسة ينتهج، أية ذهنية تحكمه؟ هل هنالك من أهداف يتطلع إليها، ويبني استراتيجيات معيّنة للوصول إليها؟

هل هنالك رابط أو منظومة ما، تنسّق ما بين الإنتاج الإعلامي، والإنتاج الثقافي والتربوي والتعليمي، الذي يقدم له من خلال وعاء واحد، هو اللغة !!

لقد أشارت غالبية الدراسات والأبحاث العربية التي تطرقت إلى واقع الإنتاج الإعلامي الموجّه للطفل[٧] إلى غياب السياسات والخطط الإعلامية الواضحة . كما لم تلحظ وجود الآلية التي تنسق بين ما يقدمه الإعلام وما تقدمه المصادر المعرفية والثقافية الأخرى . بمعنى أن لا وجود لنظرة شاملة ومتكاملة، تتعاون عناصرها جميعًا ، للوصول إلى هدف مشترك، يصب في خانة بناء تنشئة الطفل، وتنمية قدراته، بحيث تساعده على تفهم ثقافته الخاصة، وترسخ إيمانه بها، كي تتيح له المجال، ليعمل على تطويرها ذاتيًّا، والانفتاح على العالم من حوله . واستكمالاً لمثالنا، حول بعض مشكلات واقع تدريس اللغة العربية، سنحاول الإضاءة على واقع لغة الإعلام ، من خلال البرامج الموجّهة للأطفال في التليفزيون والإذاعة السورية .

(*) ـ لم يوافق سوى (٥ , ٣٢٪) من الطلبة و (٣١٪) من المدرسين على دور المكتبة في تنمية قدرات الطلبة القرائية والتعلم الذاتي .

ـ لم يوافق سوى (٤ , ٣٧٪) من الطلاب و (٣١٪) من المدرسين، على الاطلاع على أن المكتبة المدرسية، تنمي معارف الطلبة، وتدفعهم إلى البحث والاطلاع .

يقدم التليفزيون السوري على قنواته الثلاث(القناة الأولى ـ القناة الفضائية ـ القناة الثانية)، ما يعادل ثلاث ساعات ونصف الساعة يوميًّا، حسب التوزيع التالي:

القناة الأولى: ستون دقيقة يوميًّا.

القناة الثانية: خمسون دقيقة يوميًّا.

القناة الفضائية: تسعون دقيقة يوميًّا.

حيث تبث خلال هذه الفترات الزمنية، البرامج الأسبوعية من الإنتاج المحلي، ومسلسلات وأفلام الرسوم المتحركة، وتشير خارطة البرامج، إلى وجود البرامج التالية من الإنتاج المحلي.

القناة الأولى: ثلاثة برامج أسبوعيًّا.

القناة الثانية: ثلاثة برامج أسبوعيًّا.

القناة الفضائية: سبعة برامج أسبوعيًّا.

فما أهداف هذه البرامج، وأية لغة تستخدم في إعدادها وتقديمها، وفي التفاعل مع الأطفال من خلالها؟

في هذا الصدد، نسجل الملاحظات التالية:

١ـ تتوجه هذه البرامج جميعًا، نحو الأطفال في مرحلة التعليم الأساسي، أي منذ سن السادسة وحتى الرابعة عشرة، أي أننا نلحظ غياب التوجه لمرحلتَي الطفولة المبكرة واليفاعة.

٢ـ ينتمي الجزء الأعظم من هذه البرامج إلى فئة البرامج المنوعة، التي تعتمد الوصفة التقليدية: (قصة ـ أغنية ـ معلومة ـ رسوم متحركة ـ حوار أو استطلاع)، وتندرج تحت الأهداف التربوية والتوجيهية والتعليمية، كما يفيد معدوها [٨].

٣ـ تعتمد هذه البرامج جميعًا على اللغة العامية في التقديم، عدا برنامج واحد (كانوا أطفالاً)*، الذي يعتمد اللغة الفصحى، الملقّمة لمجموعة من الأطفال، في حوارهم مع ضيف البرنامج (شخصية عامة).

٤ـ ظهور بعض الألفاظ الأجنبية المأخوذة عن الإنكليزية(بالدرجة الأولى)، أو الفرنسية، على لسان مقدمي البرامج، وليس على لسان الأطفال.

٥ـ الصورة العامة إذًا، تشير إلى انعدام التوازن بين أصناف البرامج من حيث مراعاة المراحل العمرية ـ المضامين ـ اللغة المستخدمة.

لقد تبين بعد المشاهدة، والحوار مع معدّي ومقدّمي البرامج، أن السياسة أو معايير تضعها الإدارات، فيما يتعلق باللغة المستخدمة في هذه البرامج. وبالتالي، فإن الأمر متروك، إلى من يقدم البرنامج، حتى ولو كان المعدّ، قد كتب النص بالعربية الفصحى.

تقول إحدى مقدمات برنامج للمسابقات * (بالكلمة وبالحرف) :

إنّ البرنامج يهدف إلى إيصال المعلومات، المستقاة من المنهاج الدراسي لأطفال مرحلة التعليم الأساسي. وأن لا وجود لنص مكتوب تعتمد عليه، كل ما لديها هو مجموعة من الأسئلة المنتقاة من مواد (التاريخ ـ الجغرافيا ـ الأدب ـ اللغات)، تظهر مكتوبة على الشاشة بالفصحى، لكنها تستخدم العامية في حديثها مع الأطفال، المتسابقين عبر الهاتف: فذلك أسهل وأقرب للتواصل، كما أنها تعتمد استخدام كلمات أجنبية بهدف تعليمي أيضًا ونقول مثلاً: **Orange** بدلاً من برتقالي و **Careau** بدلاً من مربع، وهكذا مبررة الأمر، بأن الطفل يجب أن يتصرف ويتعلم اللغات الأجنبية ، التي يزداد احتياجنا إليها يومًا بعد يوم.

وتقول معدة ومقدمة برنامج طريق (طريق النحل)* ، إنها تكتب نص برنامجها بالفصحى، لكنها تقدّمه بالعامية المهذبة مع مراعاة اللفظ الصحيح للأحرف اللثوية قدر الإمكان. تستخدم العامية لأنها ترى أن الفصحى تخلق حاجزاً بينها وبين الأطفال، بينما العامية هي لغة الحياة اليومية، ولغة الأهل.

ومع ذلك، فهي تستخدم الفصحى، لدى قراءتها القصة، أو الرسائل الواردة من الأطفال، ورغم رفضها استخدام الكلمات الأجنبية المتداولة في الحياة اليومية، ضمن البرنامج، إلاّ أنها لا ترى ضيراً في الحوار، من خلال البرنامج ، مع طفل أجنبي بلغته أو قراءة قصة بالإنكليزية، أو حتى إدراج مقطع من أفلام الرسوم المتحركة دون ترجمة أو دبلجة.

وتعترف معدّة ومقدّمة برنامج (مطمورة)* : إنها تلجأ إلى العامية خشية الوقوع في الأخطاء النحوية واللغوية. حيث إنها تقدم البرنامج دون اللجوء إلى أي نص مكتوب. وهي تشاطر زميلاتها الرأي نفسه، بأن العامية أقرب للوصول إلى قلوب الأطفال، وتكسر الحواجز معهم، كما ترى أن انتشار العامية، فضّل كسر الحواجز بين بلدان الوطن العربي، حيث لكل بلد لهجته المحلية، التي لم نكن تفهم .

وتردف مقدمة برنامج (بريد الأطفال*) و (صبيان وبنات*) :

إن نص البرنامج (بريد الأطفال) يأتيها مكتوبًا باللغة الفصحى، لكن أية لغة!

إنها مليئة بالأخطاء، وتتصف بالضعف والركاكة، مما يدفعها إلى تقديم البرنامج بالعامية، فهي ليست مضطرة إلى إعادة صياغة النص، إضافة إلى أن معدّي البرنامج، لا يكلفون أنفسهم أحيانًا أي عناء، فيعطونها رسائل الأطفال، كما هي حال ورودها، دون الاكتراث بالصياغة أو الأخطاء. لكنها تستدرك قائلة: إن نوعية البرنامج الذي تقدمه، تفترض التزام الفصحى الجميلة والبسيطة، ولو أتاها النص صحيحًا، لفضّلت الفصحى.

تقود هذه الأمثلة، وسواها مما يُقدم على شاشة التليفزيون، إلى مجموعة من الملاحظات التي تؤكد على :

- عدم وجود سياسة معينة لدى المحطات، فيما يخص الإنتاج البرامجي الموجه للأطفال، وبالتالي ليست هنالك استراتيجيات محددة الأهداف (المعرفية أو التربوية أو التنموية أو الفنية) تكون دليلاً لمعدّي ومقدّمي البرامج.
- لا مراعاة لمختلف الشرائح العمرية، ـ بدءاً من مرحلة الطفولة المبكرة ـ تلي الحاجة اللغوية والمعرفية لكل شريحة، حسب احتياجاتها وخصائصها.
- لا معايير متبعة لاستخدام اللغة، بما يناسب طبيعة البرامج ونوعيتها وأهدافها.
- أهداف البرامج العامة، والقائمة إلى حد كبير، تشير إلى عدم وضوح الرؤية، وإلى عدم الدراية والاستسهال في بعض الأحيان، كما تدل على عدم الاهتمام الفاعل والحقيقي والمدروس، لدى القيمين على الإعلام الموجه للطفل.
- باب الاجتهاد الشخصي ـ بغض النظر عن مستوى الكفارة ـ هو المعيار لدى معدّي ومقدّمي برامج الأطفال، ويتّضح ذلك من موضوع التعامل مع اللغات الأجنبية.

أما فيما يتعلق بالإنتاج الدرامي، ورغم أن أغلب من يكتبون للأطفال، يفضلون هذا المجال على المجال البرامجي، وإنّ أغلبهم من المبتدئين (يوجد بينهم عدد لا بأس به من كتّاب أدب الأطفال وأدب الكبار)، إلاّ أن طريقة الإنتاج الدرامي، والخطوات المتّبعة لإنجاز الأعمال، تتيح إمكانية تجويدها وتحسينها، والسيطرة على عناصرها وأدواتها إيجابيًّا إلى حدٍّ معقول، ومن ذلك موضوع اللغة.

فالملاحظ أن نسبة كبرى من هذه الأعمال، تنطق باللغة العربية الفصحى، وقد يرجع الأمر، إلى لجوء كتّاب دراما الأطفال، إلى التاريخ والتراث، لينهلوا من حكاياته وأساطيره، إلاّ أننا نلحظ كذلك، أن الفصحى هي لغة بعض الأعمال المعاصرة، والخيالية أيضًا. مع تسجيل أن هذا الأمر بدأ يقلّ ويغيب عامًا بعد عام.

تتصف لغة الأعمال الدرامية، إن كانت فصحى أو عامية، ببساطتها وسلاستها، وبشاعريتها كذلك. فنصوص الأعمال تخضع لدراسة متأنية، ولإعادة الكتابة أو الصياغة أحيانًا، ورغم نيل العديد منها جوائز هامة في المهرجانات العربية، إلاّ أنّ موضوع تقبّل الأطفال لها، وإقبالهم على مشاهدتها، وتأثرهم فكريًّا وفنيًّا ولغويًا بها، يبقى موضوعًا للبحث والدراسة[٩].

بالنظر إلى مساحة البث التي تحتلها الرسوم المتحركة على شاشات التلفزة، نلاحظ أنها تقارب ضعف الوقت المخصص للإنتاج المحلي من برامجي ودرامي. ورغم النظرة الحذرة أحيانًا، والرافضة

أحيانًا أخرى لهذا النوع من الأعمال، تحت حجج وأسباب مختلف عليها، وباتت معروفة، إلاّ أنه لابد من تسجيل ملاحظة هامة ومؤثرة، وهي أنها جميعًا تنطق باللغة العربية الفصحى (فيما خلا تجارب قليلة) . فمن خلال هذه الأعمال، لم تعد هذه اللغة مرتبطة بالسبورة أو حبيسة الكتاب المدرسي، بل دخلت عالم الأطفال وعقولهم وقلوبهم عن طريق مسلسلات وأفلام، متقنة الصنع، وشخصيات جذابة ومحببة، وضمن سياق درامي جيّد، قوي الحبكة . كما تنوعت مواضيعها، فنهلت من الآداب العالمية، ومن تاريخ وتراث وأساطير وحكايات الشعوب، وولجت عالم الخيال العلمي، وقدمت إنجازات البشرية الكبرى، وعلوم العصر، وأسرار الطبيعة والكون والاختراعات، يساعدها على ذلك، طواعيتها الفائقة، وأدواتها من رسوم وألوان وحركة .

تكاد أعمال الرسوم المتحركة تكون، هي الأعمال الوحيدة الموجهة للأطفال والتي تعتمد اللغة الفصحى، بعد أن تُترجم من لغاتها الأصلية، وتُعاد صياغتها .

تخضع هذه الأعمال لعملية الترجمة أولاً، حيث تنقل إلى العربية الفصحى المبسطة، مع مراعاة أن يأتي النص واضحًا، ومتلائمًا، ليس فقط مع الشريحة العمرية التي يخاطبها العمل، بل مع الروح والذهنية العربية، مع ما يعنيه ذلك من تغيير واستبدال بعض الكلمات، أو التعابير غير المناسبة، فكلمات مثل(الإعجاب ـ الحب ـ الغرام) تُستبدل بها أخرى مهما كان المشهد بريئًا وطفوليًّا، فالحديث عن الحب من الموضوعات المحرمة تمامًا، كما ينسحب الأمر ذاته على الأمور الدينية، وقد يصل الأمر إلى حذف مشاهد كاملة من العمل ككل[١٠] .

تراعي النصوص المترجمة والمدبلجة، المراحل العمرية للأطفال بدقة، فحين تكون للأصغر سنًّا، تعتمد جملاً قصيرة، وتعابير بسيطة وواضحة، وقد تلجأ أحيانًا إلى استخدام ألفاظ متداولة : مثل بنطلون(ذات الأصل الأجنبي) بدلاً من سروال، وفستان (ذات الأصل الفارسي) بدلاً من ثوب ، وهكذا . . .

ويصبح الأمر أكثر يسرًا وسهولة، بالنسبة للشريحة العمرية الأكبر، من حيث التعامل مع النص واللغة، لكنه يصبح أكثر صعوبة بالنسبة لاختيار المواضيع، فيستغني في بعض الأحيان عن تقديم أعمال فنية غاية في الجودة والإتقان فنيًّا وموضوعيًّا، لمقاربتها مواضيع تعتبر غير مناسبة، لبعض المجتمعات العربية، حيث تختلف المعايير الرقابية من بلد إلى آخر .

وبالإجمال، فإن السيطرة على موضوع اللغة في عملية الدبلجة، ممكنة ومتاحة إلى حد كبير، ضمن احترام روح العمل، وعناصره الأساسية، إضافة إلى وجود عملية (التدقيق اللغوي)، هذه العملية التي تكاد تنفرد بها أعمال الرسوم المتحركة، حيث يقوم المدقق اللغوي، بإعادة صياغة وبناء النص، والبحث عن التعابير الأنسب، انتهاءً إلى تشكيل النص، ثم الوجود أثناء القيام

بعملية الدبلجة للتصحيح، إن لزم الأمر، كما قد يتولى هذه العملية، المشرف الفني، حيث يكون قادراً على ذلك.

هل يجد الأطفال صعوبة في تلقي الفصحى عن طريق الرسوم المتحركة؟ وهل تقف عائقًا أمام استمتاعهم وتأثرهم بها ؟ من نافل القول، إنّ هذه الأعمال هي التي تحظى بالشعبية الكبرى لدى الأطفال منذ سن الطفولة المبكرة، وحتى انتهاء مرحلة الطفولة ـ إن لم يتعد الأمر ذلك ـ ولقد لاحظ الدارسون، أن تأثير هذه الأعمال على الأطفال، كان إيجابيًّا جدا من ناحية اللغة، إذ أصبحوا يجيدون استخدامها، والتعبير من خلالها عن أنفسهم ـ خاصة حين يلعبون معًا ـ كما أنها أثْرَت مخزونهم اللغوي، من مفردات وتعابير، واكتسبت بعض مهارة الحوار بها. وليس خافيًا أن توافر العناصر الفنية والتقنية العالية، تلعب دوراً هامًا في الوصول إلى عقل ووجدان الأطفال، وأنها تساعد الطفل على سرعة التلقي، وهذا الأمر إن دلّ على شيء، فهو يدل على فقدان البرامج المحلية بشكل عام، لعنصر الجذب والإمتاع، بسبب من الذهنية التي تحكمها(وعظية ـ توجيهية ـ تعليمية) ولضعف العناصر والأدوات البشرية والفنية والمادية، وغياب روح الابتكار والتجديد، عند المعدين والمقدمين، غير المؤهلين والمدربين تدريبًا جيداً.

تبدو الحصة المخصصة لبرامج الأطفال الإذاعية بقنواتها الثلاث (البرنامج العام/ صوت الشعب/ صوت الشباب) ضئيلة، نسبة إلى ساعات البث الطويلة. إذ يُبث على قناة البرنامج العام، برنامجان أسبوعيًّا * ، مدّة كل واحد منهما ستون دقيقة، وهنالك برنامج أسبوعي مدّته ساعتان، على قناة صوت الشعب * وآخر على قناة صوت الشباب* مدته ساعة.

اعتمدت قناة البرنامج العام في الإذاعة على اللغة العربية الفصحى بشكل رئيس، في برامجها الموجّهة للأطفال، بغضّ النظر عن نوعية البرنامج، إن كانت حوارية أو تفاعلية، تحتمل اللهجة العامية ، بينما نلمس عكس هذا التوجه، على قناتَيْ (صوت الشعب) و (صوت الشباب)، خاصة وأن هذه الأخيرة ، تعتمد العامية بشكل يكاد يكون رئيسًا في توجهها العام. وهذا ما يؤكد على ما سبق وذكرناه، عن عدم وجود سياسات معينة، فيما يتعلق ببرامج الأطفال عامة. حتى إنّ بنية البرامج الإذاعية، لم يطرأ عليها تغيير يذكر منذ سنوات طوال، تناسب روح العصر وإيقاعه، إذ ما زالت ـ كما التليفزيونية ـ أسيرة الوصفة التقليدية الجاهزة، اللّهمّ إلاّ دخول برامج التواصل عن طريق الهاتف! كما أنّ باب الاجتهاد الشخصي، هو المدخل، أمام كل من أراد، وليس كل من هو أهل.

نتيجة لذلك، ولأسباب لا يتسع المجال لذكرها، تسجّل نسبة الاستماع (١١ إلى الإذاعة بين جمهور الأطفال، نسبة متدنيَّة لا تتجاوز (٨,٩٪). ورغم كثرة ما يُقال، حول أن التليفزيون قد خطف جمهور الإذاعة، إلاّ أننا لو وسّعنا مجال الرؤية، لتبيّن لدينا مثلاً، أنّ بلدانًا في مرحلة النهوض

والتنمية كالهند، قد ازدادت فيها نسبة المستمعين إلى المحطات الإذاعية في السنوات الأخيرة من ٢٣٪ إلى ٢٧٪ [١٢] (ناهيك عن ازدياد عدد الإصدارات في مجال نشر الكتب والصحف). ولابد أن نشير كذلك، إلى ضعف الإنتاج الدرامي الإذاعي الموجّه للطفل(*)، ـ رغم أنه أقل كلفة، وأسهل إعداداً وإخراجًا من الإنتاج الدرامي التليفزيوني. أما اللغة التي تستخدمها هذه المسلسلات، فتعود إلى اجتهاد كتابها أولاً، وآرائهم الشخصية، بغض النظر عن المواضيع والمضامين.

قال ابن خلدون: (مَلَكة اللغة تُكتسب بالحفظ والسماع، أكثر مما تكتسب بالضابط والقاعدة) هذه العبارة، وكأنها كانت تستقرئ المستقبل، حيث ستكون لوسائل الإعلام السطوة الكبرى في التأثير، والخَطْوة الكبرى لدى المتأثرين.

مما يرتب على مخططي السياسات الإعلامية، مسؤولية لا يستهان بها، لمراجعة ما هو قائم الآن، والبدء بإيجاد سياسات جديدة، تعتمد الموضوعية والواقعية والانفتاح. ذلك أنّ وجود ظاهرة الفصحى والعامية في حياتنا اللغوية، ظاهرة طبيعية نعيش بها ونتعايش معها. لكنّ ما يثير الجدل أو القلق الآن، هو الاستخدام العشوائي لها من خلال وسائل الإعلام، حيث لا سياسة واضحة، ولا معايير مدروسة، تحكم التوجه اللغوي، حسب الجمهور المستهدف، بجميع طبقاته وشرائحه وفئاته، وحسب طبيعة المادة المقدّمة، فلكل مقام مقال.

إنّ ثراء اللغة العربية وغناها بالكلمات والألفاظ والتعابير، تبيح ـ للتمكن منها ـ اختيار وانتقاء ما هو لازم ومناسب. ومن هنا ضرورة إعداد الإعلاميين وتدريبهم جيداً على امتلاك أسس وناصية اللغة ـ خاصة الذين يتوجهون منهم للفئات الأصغر سنًّا، والأقل تعليمًا ومعرفة. مع إفساح المجال أمامهم بعد ذلك، لاختيار طريقة التعبير والتواصل الملائمة لنوعية المادة وأهدافها بين عامي ١٩٩٨ـ ١٩٩٩ قدمت ثلاثة مسلسلات إذاعية للأطفال، وبين عامَيْ ٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٦ مسلسل واحد.

كذلك، يجب ألاّ يغيب عن بالنا، أنه لا يمكن عزل الواقع الذي تعيشه اللغة العربية ك (لغة) أو التحدّيات التي تجابهها في عصر (العولمة)، عن واقع الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والثقافية والتنموية كلّها. فوسائل الاتصال هي أدوات معرفية وثقافية أساسية، وأحيانًا وحيدة، للحصول على اللغة والثقافة والمعرفة، لدى أطياف واسعة من الناس، بل هم يحتّم مراعاة الواقع، واحترام مكوناته جميعًا، للتأسيس عليها من جهة، ومن جهة ثانية، توسيع مجال الرؤية حول ماهية (عصر العولمة) وانعكاسه على المجتمعات والأفراد، إيجابيًّا وسلبيًّا، ثمّ ترجمة الأهداف المعلنة ـ أقلّه من توصيات المؤتمرات ـ إلى برامج عمل، قابلة للقياس والتطبيق، ثم المتابعة والتقويم لمعرفة النتائج وتصحيح المسارات.

(*) في عام ١٩٩٨/ ١٩٩٩، قدمت ثلاثة مسلسلات إذاعية للأطفال، وفي ٢٠٠٥/ ٢٠٠٦ مسلسل واحد.

المراجع:

١) دراسات قدمت في المؤتمر العربي حول الإذاعة والتليفزيون والطفل/ تونس ٢٠٠٢/ الإمارات/ مصر/ تونس.

٢) تقرير (وضع) الأطفال في العالم/ اليونيسف/ ٢٠٠٦.

٣) التقرير الوطني للتنمية البشرية/ سورية/ ٢٠٠٥.

٤) تقرير التنمية الإنسانية العربية/ ٢٠٠٢.

٥) التقرير الوطني للتنمية البشرية/ سورية/ ٢٠٠٥.

٦) المرجع السابق.

٧) المؤتمر العربي حول الإذاعة والتليفزيون والطفل/ تونس ٢٠٠٢.

٨) مقابلات مع معدّي ومقدّمي برامج الأطفال في سورية/ ٢٠٠٦.

٩) الجدول المرفق.

١٠) لقاء مع مدير شركة تنوير للإنتاج والتوزيع الفني/ ٢٠٠٦.

١١) البحث الميداني التقويمي حول برامج الأطفال في الإذاعة والتليفزيون/ وزارة الإعلام السورية/ منظمة اليونيسيف/ ١٩٩٨/ ١٩٩٩.

١٢) صحيفة الشرق الأوسط/ ١٥/ ١٠/ ٢٠٠٦.

obeikandl.com